نصف شعبان سنة سبعٍ وأربعين، وقُتِلَ أخوه في شوال سنة ست وأربعين، بينهما عشرة أشهر، رأى في نفسه [فيها][1] العِبَر، وما نفعه الاحتراز والحذر، بعد أن أذاقه الموتُ كؤوسَ حتوفه، قَتَلَ مماليكُه ولدَه تورانشاه بسيوفه.

السنة السابعة والأربعون وستّ مئة

فيها توجه الصَّالح أيوب من دمشق إلى مِصْر في المِحَفَّة مريضاً مُدْنفاً في رابع المحرَّم، ونادى في الناس: مَنْ كان له عندنا شيءٌ فليحضرْ، ويأخذ ما له. فطلع النَّاس إلى القلعة، وأخذوا ما كان لهم.

و[حدثني من شهد الواقعة قال][1]: بينا الصَّالح في مرج الصُّفَّر في المِحَفَّة استغاث إليه رجلٌ على المخلص المغيثي، وقال: اشترى مني غنماً، ولم يعطني شيئاً، فقال: نَكِّسْه من بغلته وخُذْها، فنكَّسه، وأخذ البغلة، فباعها بسبع مئة درهم، واستوفى ماله.

وفيها حُمِلَ عِزُّ الدين أيبك المُعَظَّمي إلى القاهرة تحت الحوطة، وقيل: في سنة ستٍّ وأربعين وست مئة.

وفيها احترقت المئذنة الشَّرْقية بجامع دمشق، وراح للفقراء والمشايخ فيها ودائع وصناديق وأموال كثيرة، وكتبوا إلى الصَّالح أيوب، فأمر بعمارتها.

وفيها توجه النَّاصر داود من الكَرَك إلى حلب.

وورد كتابُ الصَّالح أيوب إلى جمال الدِّين بن يَغْمور بخراب دارِ سامة، وقَطْعِ شجر بستان القَصْر بالقابون، وخراب القَصْر، فتوقَّف ابنُ يغمور، فجاءته كُتُبٌ عِدَّة، فأخرب الدَّار، والقَصْر، وقَطَعَ الشجر.

وفيها مضى الأمجد حسن بن النَّاصر من الكَرَك إلى مِصْر، وسلَّم الكَرَك إلى الصَّالح أيوب في جمادى الآخرة، وأعطاهم مالاً، وأخرج منه عيال المعظم وأولاده وبناته وأُمَّ النَّاصر، وجميعَ مَنْ كان فيه، وبعث إليه ألف ألف دينار، وجواهر، وذخائر، وأسلحة، وشيئاً كثيراً.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

وفيها هَجَمَ الفرنجُ دمياطَ في ربيع الأول، وكان فيها فخر الدين بن الشيخ والعساكر، فخرجوا منها، وخَرَجَ أهلها، وكان الصَّالح على المنصورة، فشنق من أعيان أهلها ستين نفساً، فلما أمر بشنقهم، قالوا: ما ذنبنا؟ إذا كان عساكره وأمراؤه قد هربوا وأحرقوا الزردخاناه، فأيش نعمل نحن؟! وكان في الذين شُنِقُوا رجلٌ كتابي محتشم، وله ولد من أحسن النَّاس صورةً، فقال أبوه: بالله اشنقوني قَبْله. وبلغ الصَّالح، فقال: لا، اشنقوا الابن قبله. ففعلوا، وقامت على العسكر القيامة، ودعوا على أيوب، وأراد مماليكُه قَتْلَه، فقال لهم ابن الشيخ: اصبروا عليه، فهو على شفى، فإن مات فقد استرحتم منه، وإلا فهو بين أيديكم، وقُتِلَ نجمُ الدين ابن شيخ الإسلام.

[وقال الصالح أيوب لابن الشيخ والعسكر: أما قدرتم تقفوا ساعة بين يدي الإفرنج! ولا قتل من العسكر إلا هذا الضعيف. يعني ابن شيخ الإسلام. وكان قد قفز من الكرك إلى مصر، وأسرَّها الصالح في نفسه، ولو عاش لأهلك ابن الشيخ وغيره.

ولما أن هجمها الفرنج من باب، وخرج ابن الشيخ من باب، فظنوا أنها مكيدة، فتوقفوا، ثم تيقنوا عجز المسلمين، وخرج أهل دمياط حفاة عراة عطاشاً جياعاً، فقراء حيارى النساء والأطفال، وكان قد سَلِمَ لهم ما يعيشون فيه، فنهبهم في طريق القاهرة.

وفي ليلة النصف من شعبان مات الصالح أيوب بالمنصورة، وكانت أم خليل عنده، وهي المدبرة للأمور، فلم تغيِّر شيئاً من الدهليز بحاله، والسماط كل يوم يُمَدّ، والأمراء في الخدمة، وهي تقول: السلطان مريض ما يصل أحد إليه.

وبعثوا إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب إلى حصن كيفا أقطايا مملوك الصالح أيوب، فخرج به من حصن كيفا، وسلك البرية، وخاطر بنفسه، وكاد يهلك من العطش، ووصل إلى دمشق في آخر رمضان، وخلع على الدماشقة، وأعطاهم الأموال، وأحسن إليهم، وما سئل شيئاً فقال: لا. وبلغني أنه كان في قلعة دمشق ثلاث مئة ألف دينار، فأخرجها، واستدعى من الكرك مالاً أنفقه.

وفي ذي القعدة كانت وقعة عظيمة على المنصورة، ووصل الفرنج إلى الدهليز، وخرج فخر الدين، فقاتل، فقتل، وانهزمت العساكر من بين أيديهم، ثم استحيا المسلمون، فعادوا على الفرنج، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

وسار المعظم تورانشاه إلى مصر بعد أن أقام بدمشق سبعة وعشرين يوماً، وقيل: دخلها في العشرين من رمضان، وخرج منها في سابع عشر شوال إلا أنه ما وصل إلى مصر إلا في آخر السنة، فكان في عزمه الفتك بابن الشيخ لأنه بلغه أنه يريد الملك، والناس كلهم يريدونه، فاستشهد واستراح، رحمة الله تعالى عليه][1].

وفيها توفي

الملك الصَّالح، نجم الدين أيوب بن الكامل محمد[2]

ولد سنة ثلاثٍ وستِّ مئة بالقاهرة، ونشأ بها، ولقبه نجم الدين، واستخلفه أبوه بها لما نزل إلى الشَّرْق، فأقام مع صواب لا أَمْرَ له ولا نهي، ثم أعطاه حِصْن كيفا، وجرى له ما ذكرناه.

ولما ملك مِصْر اجتهد في خلاص ولده المغيث، فلم يقدر، وكان مهيباً هيبةً عظيمة، جَبَّاراً، أباد الأشرفية وغيرهم، [[3]وقد حكى لي جماعة من أمرائه قالوا]: والله ما نقعد على بابه إلا ونقول: مِنْ ها هنا نحمل إلى الجباب. وكان إذا حَبَسَ إنساناً نسيه، ولا يتجاسر أحدٌ أن يخاطبه فيه، [وبنى قباباً في تِنِّيس للحبس][1]، وكان يحلف أنه ما قَتَلَ نَفْساً بغير حقٍّ، وهذه مكابرةٌ ظاهرة، فإنَّ خواصَّ أصحابه حكوا أنه لا يمكن إحصاء من قتل من الأشرفية وغيرهم، ولو لم يكن إلا قتل أخيه العادل، وكانت أم خليل عتيقته تكتب خطًّا يشبه خَطَّه، فكانت تعلِّم على التَّواقيع، وكان قد نَسَرَ مخرجه، وامتدَّ إلى فخذه اليمنى ورِجْله، ونحل جسمه، وعملت له مِحَفَّة يركب فيها، وكان يتجلَّد، ولا يطلع أحداً على حاله، ثم حمل تابوته إلى الجزيرة، فعُلِّق بسلاسل حتى قُبِرَ في تُرْبته إلى جانب مدرسته بالقاهرة، وكان فخر الدين قد أشار بتحليف العساكر للمعظَّم تورانشاه، فحلفوا له، وأخفوا موتَ السُّلْطان مُدَّة، وكانت الأمور على حالها، وأطلق فخر الدين السُّكَّر والكتان إلى الشَّام، وقد ذكرنا واقعاته في السنين إلى أن توفي ليلة النِّصْف من شعبان.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ٢/ ٩٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته. و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٨٧ـ١٩٣.

(٣) في (ت): وقال جماعة من أمرائه، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

فخر الدين، يوسف بن شيخ الشيوخ[١]

كان عاقلاً، جَوَاداً، مُدَبِّراً، خليقاً بالمُلْك، محبوباً إلى النَّاس، ولما توفي الصَّالح نُدِبَ إلى الملك، فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه.

وكان لما قدم دمشق [[٢]حَضَرَ إلى عندي، وسألني الجلوس، فجلستُ بجامع دمشق، وكان ساكناً] في دار سامة، فدخل عليه العماد بن النَّحَّاس، وقال له: يا فخرَ الدِّين، إلى كم! ما بقي بعد هذا اليوم شيء. فقال له: يا عماد الدين، والله لأسبقنَّك إلى الجَنَّة. فكان كما قال، استُشْهد فخر الدين في سنة سبعٍ وأربعين [وست مئة][٣]، وتوفي العماد في صفر سنة أربعٍ وخمسين، بينهما ثماني سنين.

وكان قد قام بأمر الملك أحسن قيام، وأحسن إلى النَّاس، وبعث أقطايا وجماعةً إلى الحِصْن يحضرون تورانشاه، وحَسَدَ الجُند فخرَ الدين، وعزموا على قَتْله، ونهبوا داره، فاستدعى الأمراءَ والأكابر، وقال: أنا مالي طمعٌ في المُلْك، وإنما أحفظُ بيتَ أُستاذي حتى يجيء ولده، ويتسلَّم البلاد. فحلفوا، واعتذروا، وكان المتَّهم بذلك الخادم محسن وجماعة.

وجَهَّزَ جماعةً من مماليك الصَّالح إلى دمشق لما وصلها المُعَظَّم يستعجله في الحضور إلى مِصْر، فأوهمه بعضُ المماليك الواصلين إليه أَنَّ فخر الدِّين قد حلَّف العسكر لنفسه، ومتى وصلت قتلك. فتوقَّف، وأنفق أموال دمشق في العساكر ليستميل بها عسكر مِصْر، وحلَّف المماليك الذين بعثهم فخر الدين إليه على قَتْلِ فخر الدين.

واتَّفق مجيءُ الفرنج إلى عسكر المسلمين، وعبورهم الخنادق والبحر، واندفاع المسلمين من بين أيديهم، فركب فخر الدين وقت السَّحَر ليكشف الخبر، وكان اليوم العظيم، وأنفذ إلى الحلقة والأمراء ليركبوا، وساق جريدةً، ومعه بعضُ مماليكه وأجناده، فالتقى طُلْب الدَّاوية مصادفةً، فحملوا عليه، فهرب مَنْ كان معه، فطعنوه في

---

(١) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ٢/ ٩٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) في (ت): وكان لما قدم دمشق سكن في...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (ش).

جَنْبه، فوقع عن الفرس، وضربوه في وجهه بالسَّيف عرضاً وطولاً ضربتين، فقتلوه، وجاء مماليكه إلى داره، فكسروا صناديقه، ونهبوا أكثر ما فيها، ونهبت أمواله وخيله، وأخذ الجولاني قدور حَمَّامه، والدِّمياطي أبواب داره، وما نفعه تربيته مماليكه وإحسانه إليهم، وكان قبل ذلك بأيام قد رأى والدته في المنام، وهي تقول: قد أوحشتني. وحَمَلَتْه على كتفها، فاستشعر، فقُتِلَ بعد ذلك بأيام، ثم حُمِلَ من المعركة بقميصٍ واحد، وجُعِلَ في حرَّاقة إلى القاهرة [(١)وخربت داره كلُّها كأنها لم تكن بالأمس، أخربها] الأمراء الذين كانوا كلَّ يوم يركبون إلى خِدْمته، ويقفون على بابه، وهم أكثرُ مِنْ سبعين أميراً بسناجقهم، [كانوا](٢) يتمنون أن ينظر إلى أحدٍ منهم نظرة، أخربوا داره بأيديهم، وحمل من المقياس إلى الشَّافعي، فدُفِنَ عند والدته، وكان يوماً مشهوداً، وحُمِلَ على الأصابع، وبكى عليه النَّاس، وعُمِلَ له العزاء العظيم، وكان له يوم مات ستٌّ وستون سنة.

ولما وصل تورانشاه إلى العسكر أخذ مماليكَ فخرِ الدين الصِّغار، وبعض قُماشه بنصف القيمة، ولم يعطهم دِرْهماً، ولا عوَّض الورثة بشيء، وكان الثمن خمسة وعشرين ألف دينار، وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات، يقول: أطلق الكتان والسكر، وأنفق الأموال، وأطلق المحابيس، فأيش ترك لي أنا؟ فكان حِفْظُه الملك وسياسةُ العسكر، ومقاتلة الفرنج من أكبر ذنوبه.

[(٣)ولفخر الدين أشعار، منها]: [من الطويل]

عَصَيْتُ هوى نَفْسي صغيراً فعندما ... رمتني اللَّيالي بالمشيبِ وبالكبرِ
أطعتُ الهوى عكس القضيةِ ليتني ... خُلِقْتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغر

وله أيضاً: [من البسيط]

إذا تحقَّقْتُمْ ما عند صاحبكُمْ ... من الغَرَام فذاكَ القَدْرُ يكفيهِ
أنتمْ سكنْتُمْ فؤادي وهو منزلكُمْ ... وصاحبُ البيتِ أدرى بالذي فيهِ

(١) في (ت): وأخرب داره الأمراء...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).
(٢) ما بين حاصرتين من (ش).
(٣) في (ت): ومن شعر فخر الدين، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

وله في مملوكٍ له توفي:

لا رغبة في الحياة من بعدك لي ... يا من ببعادك تدانى أجلي
إن مت ولم أمت أسىً واخجلتي ... من عَتْبك لي في يوم عرض العمل

وفيها توفي شهاب الدين قاضي دارا، [الذي كان][1] إلى ظلمه المنتهى.

السنة الثَّامنة والأربعون وست مئة

فيها في أَوَّل ليلة منها كان المصافُّ بين الفرنج والمسلمين على المنصورة، بعد وصول المعظم تورانشاه إلى المخيَّم مسك الإفرنسيس، وَقَتَل من الفرنج مئة ألف، ووصل كتاب المعظم إلى جمال الدين بن يغمور يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

نبشِّر المجلس السَّامي الجمالي، بل نبشِّر الإسلام كافَّة بما مَنَّ الله به على المُسْلمين من الظَّفر بعدوِّ الدِّين، فإنَّه كان قد استفحل أمره، واستحكم شَرُّه، ويئس العبادُ من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ الآية [يوسف: ٨٧] ولما كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة تَمَّم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال، وفرَّقنا السِّلاح، وجمعنا العُرْبان والمطاوعة، واجتمع خَلْق [عظيم][1]، لا يحصيهم إلا الله تعالى، وجاؤوا من كل فجٍّ عميق، ومن كلِّ مكانٍ بعيد سحيق، ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصُّلْح على ما وقع الاتِّفاق بينهم وبين الملك الكامل، فأَبَيْنا، ولما كان في الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم، وقصدوا دِمياط هاربين، فسِرْنا في آثارهم طالبين، وما زال السيف يعمل فيهم عامَّة الليل، وقد حلَّ بهم الخِزْي والوَيْل، فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللُّجج، وأما الأسرى فحدِّث عن البحر ولا حَرَج،

(١) ما بين حاصرتين من (ش).